الباب الأول

مع النفس

تمهيد

يحتوي الباب الأول **مع النفس**، على أربعة فصول فصل **في رحاب التفسير**، وفيه تفسير سور الأعلى والغاشية والفجر، وفصل **من رحيق السيرة**، وفيه عرض لسيرة النبي ﷺ في أواخر العهد المدني، وما يتعلق بوداع النبي ﷺ للأمة، ووفاته ﷺ، ثم فصل **من جواهر العلم**، وفيه فقه صلاة الجماعة وسترة المصلي، ويختم بفصل **من حصاد الفكر**، وفيه تواصل التعريف العام بالإسلام، وتخصصه في هذا الجزء للتعريف العام بعقيدة الإسلام

أما **في رحاب التفسير**، فعيش فيه أولاً مع تفسير سورة الأعلى، وسبه تعرف فضلها، وحق الخالق ﷻ في التسبيح والتمجيد، وكيف أن الإسلام يُسر، ثم بيان التطهر كسبيل للفلاح، وحقيقة أن الحق واحد عند كل الأنبياء

ونعيش أيضًا مع سورة الغاشية ليتضح هناء من عمل لله، وشقاء من عمل لغيره، وكيف أنَّ صُنْعَ الله يدل عليه، حتى نصل لتقرير أن عليا البلاغ وليس الحساب.

ثم نتأمل تفسير سورة الفجر، لنرى أن الهلاك مصير كل الطغاة، وأن ليس العبرة بتكريم ولا الفقر بتحقير، بل إن في كل عطاء ابتلاء، والسورة تؤكد أن صحة التصور ضرورة لصحة التصرف، وأن كل محرم يدمر، وكل مؤمن يُنعَّم.

وفصل **من رحيق السيرة**، يعرض تفصيلاً لوداع النبي ﷺ للعالم ولأمته، وحسم أمر الخلافة من بعده.

والفصل الثالث **من جواهر العلم**، تركيزه في هذا الجزء على أحكام صلاة الجماعة للرجل والمرأة، وما يتعلق بها من سُترة المصلي، وقد تحرّينا ربط كل حكم بالحديث الصحيح الذي يؤيده؛ حتى يشعر القلب بمعية الوحي في كل تصرف عملي، ولتكون الآية الكريمة أو الحديث الشريف رادًا ومرتكزًا لكل من يبحث عن الثواب في تطبيع الحكم الشرعي لغيره

والفصل الرابع **من حصاد الفكر**، يعني بالتعريف بعقيدة الإسلام، فتبين أن العقيدة توثق أساسيات الإسلام وترتطها بعضها ببعض، ونقرر أن الوحي أساس العقيدة، وأن ميزان العقل صحيح في مجاله؛ لأنه أساس المعرفة وسبب التكليف، كما بين أن العقيدة أساس العمل وأوثق الرابط، ثم نستعرض خصائص عقيدة الإسلام: الوضوح والفطرية، والثبات والرهنة، وأنها عقيدة كل الأنبياء، ورغم أن تركيزنا هنا على قسم الإلهيات من العقائد إلا أننا أوردنا التقسيم العام للعقائد في الإسلام، وتعريف كل قسم.

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا علمًا نافعًا، وأن يرزقنا العمل والإخلاص فيه

*****

الفصل الأول

في رحاب التفسير

١- سورة الأعلـــى

٢- سورة الغاشـــية

٣- سورة الفجـــر

١- سورة الأعلى

سورة الأعلى سورة مكية، أحبها رسول الله ﷺ، فعن علي ﷺ قال كَانَ رَسُول الله ﷺ يحب هذه السورة سَبِّح اسمَ ربِّك الأعلى. [تفرد به أحمد، الحديث ٧٤] وحُقَّ لرسول الله ﷺ أن يحب هذه السورة، ويقرأها في المناسبات، فهي تجعل الكون كله معبدًا تردد أرجاؤه تسبيح ربه الأعلى وتمجيده، كما أنها تحمل بشريات لرسول الله ﷺ، مثل تَكَفُّل الله ﷻ بتحفيظ قلب النبي ﷺ القرآن فلا ينساه، ووَعْده ﷻ له بتيسير أموره وأمور الدعوة

والسورة تتضمن من القواعد الثابتة للتصور الإيماني توحيد الخالق ﷻ، وإثبات الوحي الإلهي، وتقرير الجزاء في الآخرة.

تُقرأ في الأعياد:

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ، قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلاتَيْنِ [مسلم، الحديث ١٤٥٢].

قال ﷻ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى(١) الذي خَلَقَ فَسَوَّى(٢) وَالذي قَدَّرَ فَهَدَى(٣) وَالذي أَخْرَجَ الْمَرْعَى(٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى(٥)﴾.

المفردات:

﴿سَبِّحِ﴾ نزِّهْ وقدِّس ﴿فَسَوَّى﴾. عدَّل وأحسن.

﴿قَدَّرَ﴾ جعل الأشياء على مقادير ﴿الْمَرْعَى﴾ ما ترعاه الدواب

﴿غُثَاءً﴾ هشيمًا متفتتًا ﴿أَحْوَى﴾ يميل لونه للسواد

التسبيح والتمجيد حق الخالق:

تفتتح السورة بأمر لرسول الله ﷺ، أمر فيه من التلطف والإيناس ما يجل عن التعبير، أمر بتسبيح المولى ﷻ، والتسبيح هو التمجيد والتنزيه، واستحضار معاني الصفات الحسنى لله، وليس مجرد ترديد لفظ سبحان الله

ومن موجبات تسبيح الله ﷻ وتنزيهه. أنه خلق كل شيء فسوَّاه وأكمل صنعته، وقَدَّر لكل مخلوق وظيفته وغايته، وهداه إلى ما خلقه لأجله، وأنه ﷻ أخرج نعمة المرعى، الذي هو كل نبات، يخرج في أول أمره خَضِرًا، ثم يبدو يبدل فيصير ماليًا يابسًا، هشيمًا يميل لونه للسواد.

قال ﷻ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ(٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ(٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ(٨)﴾

المفردات.

﴿الْجَهْرَ﴾ ما ظهر من فعل أو قول ﴿الْيُسْرَىٰ﴾ الشريعة السمحة

الله ﷻ يحفظ القرآن في قلب النبي ﷺ:

وتبدأ البشريات لرسول الله ﷺ ولأمته من ورائه، أولها بشرى تريحه ﷺ وتطمئنه على هذا القرآن الحبيب إلى قلبه، ألا وهي رفع عناء الحفظ للقرآن عن عاتقه ﷺ، فما عليه إلا القراءة يتلقاها عن ربه، وربه هو المتكفل بعد ذلك بقلبه، فلن ينسى ما يُقْرئه إياه ربه، إلا ما أراد الله نسخه ومحوه لحكمة يعلمها ﷻ بعلمه الذي يشمل كل ظاهر وكل خفي

الإسلام دين اليسر:

ثم تأتي البشرى الثانية لرسول الله ﷺ، وهي تسهيل أفعال الخير وأقواله، والهداية للشريعة السهلة السمحة المستقيمة العادلة، شريعة لا حرج فيها ولا عُسْر، ألا وهي شريعة الإسلام

وانعكست تلك الشارة على سيرة الرسول الكريم ﷺ وسنته، فكلها صفحات من السماحة واليسر، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الآخَرِ، إِلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا. [البخاري، من الحديث ٤٢٩٥]، وتجلّى ذلك في هديه ﷺ في الطعام والشراب واللباس، وسائر أحكام العادات، وفي علاجه للأمور، وتعامله مع أصحابه وأعدائه

قال ﷻ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى(٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى(١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى(١١) الذي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى(١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا(١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى(١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى(١٥)﴾

المفردات:

﴿الأشقى﴾ الشقي المعاند ﴿أفلح﴾ ظفر ونجا

﴿تزكى﴾. تطهر

نضع التذكرة حيث تنفع:

والتذكرة تُوضع في موضعها، وحيث يُرْجَى لها نفع، فلا توضع فيمن لا يُرْجَى وعيهم لها، فمن كان له قلب حي يؤمن بالله ﷻ ويخاف عذابه، فإنه سينتفع بالموعظة، أما الشقي المعاند فسيتجنبها، وهذا ليس له جزاء إلا النار

الكبرى بشدائدها وبصحائفها، يصلاها في الآخرة، فيمتد بقاؤه فيها ويطول، فلا هو يموت فيستريح، ولا هو يحيا الحياة الطيبة الكريمة

التطهر سبيل الفلاح.

وعلى الحاسب المقابل يجد أن من طهَّر بدنه من الأرجاس ونَفْسَه من الرذائل، وماله من الحرام، وذكَر الله، وأقام الصلاة في أوقاتها، أفلح ونجا، أفلح في دنياه، فعاش موصولاً بالله، وأفلح في الآخرة، فنجا من النار وفاز بالنعيم والرضا

قال ﷻ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى(١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى(١٩)﴾

المفردات

﴿تُؤْثِرُونَ﴾ تفضلون ﴿الصُّحُف﴾ المقصود ما يكتب فيها

تُؤثِرُ الباقية:

وها يبين الله ﷻ علة شقاء العباد وسبب غفلتهم عن الذكر والتطهر، ألا وهو تفضيل الحياة الفانية على الآخرة الباقية، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال "مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى". [أخرجه أحمد، الحديث ١٨٨٦٦]

وفي ظل حقيقة أن الدنيا من الدنو والهبوط، فهي إلى زوال، وأن الآخرة هي الباقية، يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير، لا يقدم عليهما عاقل بصير

وقد فقه ذلك وعمل به صحابة النبي ﷺ، وسار على نهجه الدعاة والمصلحون في كل زمان ومكان، يقول واحد منهم أرّقه تكالب مسلمي عصره على الدنيا. [هل فهم المسلمون من كتاب ربهم هذا المعنى، فسَمَت نفوسهم، ورقّت أرواحهم، وتحرروا من رِق المادة، وتطهروا من لدة الشهوات والأهواء، وترفعوا عن سفاسف الأمور ودنايا المقاصد، ووجهوا وجوههم لله يعلون كلمته، ويجاهدون في سبيله، ويشرون دينه؟ أم هُم هؤلاء أسرى الشهوات وعبيد الأهواء والمطامع؟ كل همهم لُقمة ليِّنة، ومَركَب فارِه، وحُلة جميلة، وبومة مريحة، وامرأة وصيئة، ومطهر كاذب، ولقب أجوف][1].

الحق عند كل الأنبياء.

إن هذه الحقيقة -حقيقة فناء الدنيا وبقاء الآخرة- ومضمون هذه المواعظ المذكورة في تلك السورة، موجود ومثبت في الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى -عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام- فمصدر التلقي واحد لجميع الأنبياء، فالحق واحد، والعقيدة واحدة.

*****

١- الأستاذ حسن البنا، مجموعة الرسائل، ط دار الدعوة، ١٩٩، ص٤٣، ٤٤ بتصرف يسير

٢- سورة الغاشية

سورة الغاشية مكية، وقد تقدم في تفسير سورة الأعلى أن النبي ﷺ كان يقرأها مع سورة الأعلى في العيدين والجمعة، وقد تناولت السورة موضوعين أساسيين، هما القيامة وأحوالها وأهوالها وما يلقاه فيها المؤمن والكافر، ثم الأدلة والبراهين على وحدانية الله ﷻ، وقدرته الباهرة المتمثلة في مخلوقاته المتنوعة، ثم ختمت السورة بالتذكير برجوع الناس جميعًا إلى الله ﷻ للحساب والجزاء.

نقرؤها في الجمعة.

كتب الضَّحَّاكُ بن قَيْسٍ إِلَى النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ أَخْبِرْنَا بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مَعَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ، قَالَ كَانَ يَقْرَأُ فِيهَا هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ. [ابن ماجة، الحديث ٩ ١١]

قال ﷻ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ(٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ(٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً(٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ(٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ(٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ(٧)﴾

المفردات:

﴿الغَاشية﴾ القيامة تغشى الناس بأهوالها ﴿خَاشِعة﴾ ذليلة خاضعة

﴿ناصبة﴾ متعبة مجهدة ﴿آنِيَة﴾. شديدة الحرارة

﴿ضَرِيع﴾ نبات حبيت ذو شوك ﴿لا يُغني﴾ لا ينفع

بدأ السورة الكريمة باستفهام مشوق ومرغب في الوقت نفسه، يحتوي ضمنًا

من أسماء القيامة العاشية التي تغشى الناس فتعمرهم بأهوالها.

عناء مَن عمل لغير الله:

هناك الوجوه الذليلة المتعبة المهينة، التي عملت في الدنيا لغير الله، فهم يتعبون ويشقون في الدنيا، ثم يجدون عاقبة هذا في الآخرة نارًا مسعرة شديدة الحرارة، وإذا أرادوا ريًّا سُقُوا من عين متناهية الحرارة، وإذا أرادوا طعامًا لا يجدون إلا الشوك المسموم الذي يأخذ بالحلوق، فلا يفيد قوة ولا يسد جوعًا

قال ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ(٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ(٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً(١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ(١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ(١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ(١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ(١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ(١٦)﴾

المفردات.

﴿ناعِمَة﴾. يظهر عليها النعيم والحسن ﴿لاغِية﴾ كلامًا لا فائدة منه

﴿نمارق﴾ وسائد، ومفردها نمرقة ﴿زَرَابِي﴾. البُسُط الفاخرة، ومفردها: زربيَّة.

﴿مبثوثة﴾ كثيرة منتشرة.

هناء مَن عمل لله:

وعلى الجانب الآخر نلمح وجوهًا يظهر عليها النعيم، ويفيض منها الرضا عن عملها، حين ترى رضا الله ﷻ عنها، فتسكن جنانًا عالية الدرجات، رفيعة المقامات، لا يسمعون فيها شتمًا ولا فُحشًا ولا لغوًا باطلاً، وإنما هو الهدوء والسلام والود والسَّمر بين الأحبة، تجري من تحتهم العيون التي لا يقطع

حريالها، ولا يتوقف فيضالها، يجلسون وينامون على سرر مرتفعة، بطيفة طاهرة، فإذا أرادوا أن يجلسوا عليها تواضعت لهم، هذا وقد وُضعت لهم أواني الشرب على حافات العيون معدة لشرابهم، لا تحتاج إلى من يملؤها، كما صُفَّت لهم الوسائد بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها في ارتياح، وبُسطت لهم البُسط ونُثرت في كل مكان، للرية وللجلوس عليها

قال ﷻ ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(٢٠)﴾

المفردات

﴿الإبل﴾ الجمال ﴿نُصِبَتْ﴾ وُضعت في وضع ثابت

﴿سُطِحَت﴾ بُسطت ومُهِّدت.

قدرة الله ﷻ تتجلى في صنعه:

ثم يلفت الله ﷻ أنظار عباده إلى الكون، فيأمرهم بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته ﷻ وعظمته، فالجمال خلقها الله ﷻ خلقًا عجيبًا بديعًا، إذ جعلها قوية تحمل الأحمال الثقيلة، وتقطع المسافات الطويلة، وتصبر كثيرًا على الجوع والعطش، وعلاوة على جمال منظرها وتناسق هيئتها، فإن لحمها يؤكل، كما يُشرب لبنها، ويُنتفع بوبرها

وليتظروا كذلك إلى السماء، كيف رُفعت بلا عمد، وانتشرت فيها النجوم، وإلى الجبال كيف جُعلت ثابتة راسية، وإلى الأرض كيف بُسطت ومُهِّدت للحياة والسير والعمل

إن كل هذه المظاهر البديعة الباهرة لكل ناظر، لا بد لها من خالق مبدع، ولا أحد يملك تلك القدرة سوى الله ﷻ

قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ(٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ(٢٢) إِلا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ(٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ(٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(٢٦)﴾.

المفردات:

﴿فَذَكِّرْ﴾ فارشد ﴿بِمُسَيْطِرٍ﴾ متسلط

﴿تولى﴾ أعرض ﴿إيابهم﴾. رجوعهم

علينا البلاغ وعلى الله الحساب:

وبعد الجولة في عالم الآخرة، ثم الجولة في مشاهد الكون، يتوجه الخطاب لرسول الله ﷺ وللدعاة من بعده، يوجههم إلى واجبهم ويُعرفهم طبيعة وظيفتهم، ألا وهي مجرد التذكير والإرشاد، فليس للدعاة أن يتسلطوا أو يقهروا الناس ليحملوهم على الإيمان، [فالدعوة الحقة إنما تخاطب الأرواح أولاً، وتناجي القلوب، وتطرق معاليق النفوس، ومُحَال أن تنتت بالعصا، أو أن تصل إليها على رءوس الأسنة والسهام][1].

أمَّا من أعرض وكفر، فإن الله العلي القدير يعذبه، ذلك أن إليه ﷻ مرجع الخلق، فيحاربهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

*****

١- الأستاذ حسن البنا، مجموعة الرسائل، ط. دار الدعوة، ١٩٩٠، صـ١٤١ تصرف يسير

٣- سورة الفجر

سورة الفجر -كسابقتها- سورة مكية، تناولت ثلاثة أمور. أول هذه الأمور: ذكر بعض من قصص الأمم الغابرة، وما فعل الله بهم نتيجة تكذيبهم وتكبرهم، وثانيها بيان سنة الله ﷻ في ابتلاء العباد بالخير والشر والغنى والفقر، والأمر الثالث هو الآخرة وأهوالها، وانقسام الناس فيها ما بين شقي وسعيد

قال ﷻ: ﴿وَالْفَجْرِ(١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ(٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ(٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ(٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ(٥)﴾

المفردات.

﴿الشَّفع﴾ العدد الزوجي ﴿الوَتر﴾ العدد الفردي

﴿يَسْرِ﴾ يمضي ﴿حِجْر﴾ عقل

قَسَمٌ يدفع للتدبر:

يقسم الله ﷻ ليُلفت الأبصار ويُثير الانتباه، إنه ﷻ يقسم بعدد من مخلوقاته، لتتدبر ما فيها من مظاهر قدرته

فيقسم الله ﷻ بضوء الصبح الذي يشق الظلام، ويقسم بتلك الليالي المباركة، العشر الأول من ذي الحجة -على أصح الأقوال- لما لها من فضل، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ» -يقصد العشر الأول من ذي الحجة- قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ» [البخاري، من الحديث٩١٦]، وقيل هي العشر الأواخر من رمضان، وقيل: هي العشر الأول من

المحرَّم، وعلى كل الأحوال فهي ليالٍ عشر لها عند الله ﷻ شأن.

ثم يتابع الله ﷻ القسم، فيقسم بما يلحق الليالي العشر من ذي الحجة، وهما يوم النحر -العاشر- ويوم عرفة -التاسع- فعن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: "إِنَّ الْعَشْرَ عَشْرُ الأَضْحَى، وَالْوَتْرَ يَوْمُ عَرَفَةَ، وَالشَّفْعَ يَوْمُ النَّحْرِ" [أحمد، الحديث١٣٩٨٧]، وقيل إنهما الروح والفرد من كل المخلوقات، وقيل: إن الله هو الوتر؛ لأنه الواحد، والمخلوقات هي الشفع؛ لأن منها الذكر والأنثى.

وأخيرًا يقسم الله ﷻ بالليل عندما يحل بظلامه، ليناسب قسمه بطلوع الفجر بضيائه، ثم يأتي ﷻ هذا الاستفهام التقريري، ليوضح أن في هذه الأشياء - التي أقسم بها ﷻ- كفاية لإقناع كل من له عقل يفهم ويعي

قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ(٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ(٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ(١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ(١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ(١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ(١٤)﴾

المفردات.

﴿بِعَادٍ﴾ قبيلة عربية

﴿إِرَمَ﴾ بلدة أو اسم قبيلة

﴿جَابُوا﴾ قطعوا

﴿طَغَوْا﴾ ظلموا وتعدوا الحد

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ عذاب شديد

﴿لَبِالْمِرْصَادِ﴾ يرصد أعمال العباد.

الهلاك مصير الطغاة

بعد هذا القسم البليغ، يأتي هذا الاستفهام ليثير شوق النبي ﷺ وأمته لمعرفة عاقبة الأمم السابقة التي كذبت أنبياءها، وحاربت دعوة الله، ومنهم قوم عاد بن إرم، وهم قوم سيدنا هود عليه السلام، الذين كانوا يسكنون البيوت المرفوعة بالأعمدة الشداد، و لم يخلق الله ﷻ أناسًا أمثالهم في قوتهم وشدتهم وضخامة أجسادهم، وقد كذبوا هودًا عليه السلام، وحاربوه وآذوه

ومن تلك الأمم أيضًا. ثمود قوم سيدنا صالح عليه السلام، الذين قطعوا صخور الجبال ونحتوا منها بيوتًا، وقد كذبوا نبيهم أيضًا، وذبحوا الناقة التي أرسلها الله لهم

وكذلك فرعون الطاغية الجبار، صاحب الجيوش والجموع الكثيفة التي تشد ملكه كالأوتاد، وقيل: إنه كان يعذب الناس بدق الأوتاد في أجسادهم، ادعى الربوبية وكذّب موسى عليه السلام، وأمعن في المؤمنين تقتيلاً وتعذيبًا.

هؤلاء المتجبرون -عاد وثمود وفرعون- جاوزوا الحد في الظلم والطغيان، وأفسدوا بلادهم بالكفر والظلم، وسائر المعاصي والآثام، فدمّروا المواريث، وحطموا القيم، وحرّفوا التصورات، واستعبدوا الجماهير وأذلوهم، فلما كثر منهم هذا الإفساد أرسل الله ﷻ لهم عذابه وانتقامه، فأنجى الله ﷻ المرسلين والذين آمنوا معهم، ثم أهلكهم، أهلك عادًا بريح شديدة قصت عليهم، وأهلك ثمود بصيحة عظيمة أسكتتهم وقصت عليهم، وأغرق فرعون وجنوده في البحر، فقد كان الله لهم راصدًا ومراقبًا، ذلك ليطمئن بال المؤمن، ويوقن بأن ربه ﷻ ما كان ليترك الطغاة والظالمين أبدًا، فهو لهم بالمرصاد، وسيأتي اليوم الذي يجازيهم فيه على طغيانهم وظلمهم.

قال ﷻ. ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(١٦) كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ(١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا(١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا(٢٠)﴾

المفردات

﴿ابتلاه﴾: اختبره.
﴿فقدر﴾. ضيَّق
﴿أهانن﴾ أذلني وأحزني
﴿تحاضُّون﴾ يحث ويأمر بعضكم بعضًا.
﴿التُّراث﴾ الميراث
﴿لمًّا﴾ شديدًا واسعًا
﴿جمًّا﴾ كثيرًا

لا العِبَى تكريم، ولا الفقر تحقير

ثم تعرض الآيات لتصور الإنسان القاصر لما يبتليه الله به من أحوال، من غنى وإكرام، أو فقر وتضييق، فلا يدرك عقله القاصر إلا ظواهر الأشياء، فيظن الغِنَى والنعيم وإقبال الدنيا تكريمًا له، وعلامة على حب الله له، ولا يدرك أنه اختبار له، أيشكر أم يكفر، ويظن الفقر والحاجة إهانة له، وتخليًا من الله ﷻ عنه، وعقابًا من الله ﷻ، ولا شك أن تلك كلها تصورات خاطئة.

في كل عطاء ابتلاء:

الميزان الصحيح هو أن يرى الإنسان في كل حدث امتحانًا، وفي كل عطاء اختبارًا، قال ﷻ. ﴿..ونَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[1]، أما صلاح الدين، فإن الله

١- من الآية ٣٥ من سورة الأنبياء

ﷺ لا يعطيه إلا لمن أحب، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال " وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلا يُعْطِي الدِّينَ إِلا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ " [تفرد به أحمد، من الحديث ٣٤٩٠]، ويقول المولى ﷻ. ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ [1]

صحة التصور تصحح التصرف:

وعندما تصح التصورات والموازين؛ يتحرر الناس من أثر حب المال الذي يشل العقول ويُظْلِم القلوب، ذلك الحب الذي ربى لهم جمع المال وأكله، سواء كان من حلال أم من حرام، وسواء كان من حقهم أم هو حق غيرهم، هذا الحب والحرص الذي دفع بهم إلى وهدة[2] التحلي عن مساعدة اليتيم، وإلى نقيصة التعافل عن إطعام المساكين

قال ﷻ: ﴿كَلا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا(٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى(٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً(٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي(٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي(٣٠)﴾

١- الآيتان ٥٥، ٥٦ من سورة المؤمنون

٢- الوهدة الحفرة والمكان المنخفض من الأرض

المفردات

﴿دُكَّتْ﴾ زُلزلت وكُسِّرت ﴿المَلَكُ﴾ الملائكة

﴿وأنَّى له﴾. من أين له ﴿يُوثِقُ﴾: يُشد بالسلاسل والأغلال

أهوال تتوالى:

بعد هذا الإنكار والتوبيخ للمتكالبين على الدنيا، يأتي التهديد الرهيب بيوم الحراء، بتصوير ترجف له القلوب وتخشع له الأبصار، ليرتدع الغافلون وليعلموا أن أمامهم أهوالاً عظيمة في هذا اليوم، حين تزلزل الأرض وتهتز اهتزازًا شديدًا متواليًا، حتى يهدم كل شاء عليها ويعدم، ثم يأتي الرب ﷻ بالكيفية التي لا يعلمها إلا هو ﷻ، وتأتي الملائكة صفوفًا متتابعة، وفريق منهم يجرُّون جهنم ويأتون بها ليراها المجرمون، يقول النبي ﷺ: "يُؤتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ[1] مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا" [مسلم، الحديث٥٠٧٦]

مجرم يندم ومؤمن ينعم:

وفي ذلك اليوم الرهيب والموقف العصيب، يتذكر الإنسان عمله، ويندم على تفريطه وعصيانه، حيث لا ينفع الندم، ولا تفيد الذكرى، فقد فات الأوان، فلا يملك إلا أن يتحسر ويعض أصابع الندم، ويقول لنفسه. يا ليتني قدمت أعمالاً صالحة في حياتي لتنعمني في أخراي، في هذا اليوم ليس هناك أحد أشد عذابًا من تعذيب الله ﷻ لمن عصاه، وليس هناك أشد وأحكم قيدًا من تقييد الله ﷻ للكافر الفاجر، بالسلاسل والأغلال، هذا هو حال النفوس المجرمة الخبيثة، أما النفس المؤمنة الثابتة، الطائعة، الدائرة مع الحق، المطمئنة إلى ربها، المطمئنة إلى

١- الزمام المقص والمسك

طريقها، المطمئنة إلى قدر الله لها، المطمئنة في السراء والضراء، وفي المنع والعطاء، المطمئنة فلا ترتاب ولا تنحرف، ولا تتلحلح في الطريق، تلك النفس يرسل الله ﷻ عليها سكينته من أول منازل الآخرة حتى مستقرها، فتطمئن بوعده ﷻ، فلا يلحقها خوف ولا فزع، وتُنادَى من قبل المولى ﷻ ارجعي إلى رضوان ربك وجنته، راضية بما أعطاك الله من النعيم، مرضية عنده بما قدمت من عمل، فادخلي في زمرة عبادي الصالحين، وادخلي جنتي، دار الأبرار المتقين

اللهم إنا نسألك نفسًا بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك

*****